ضمير الجلالة المفرد المتكلم في القرآن الكريم

محمد بن أحمد الدوغان
كلية التربية، جامعة الملك فيصل
الأحساء، المملكة العربية السعودية

الملخص:

يقدم البحث إجابة عن إشكالية ورود ضمير الجلالة المفرد المتكلم في مواضع دون مواضع من القرآن الكريم، مجريا إحصائية دقيقة لورود ضمائر المتكلم جمعا وإفرادا – له عز وجل – ومقارنا بين النسبتين في أربع عشر سورة اخترتها اختيارا عشوائيا من أول القرآن الكريم ووسطه وآخره.

بعد أن توصلت إلى نتائج الإحصائية في السور المذكورة استقريتها كماً وموضوعاً في بقية سورة القرآن الكريم جميعا فوجدتها متوافقة معها إلى حد بعيد

وقد توصلت الدراسة إلى :

- أن معظم ما ورد من ضمير المتكلم – لله عز وجل – في القرآن الكريم جاء بصيغ الجمع.
- وأن النسبة القليلة من ضمائر المفرد المتكلم – لله عز وجل – هي التي وردت في مواضع محصورة تقريبا وقد وردت مرتبطة بمعان ودلالات معينة أبرزها الوحدانية، العبودية، خطاب المقربين، التعهد للمؤمنين وللطائعين، التوعد للكفرة وللعصاة.
- أن ضمير المفرد المتكلم إنما اختص بتلك المواضع لأنه يحمل معنى القرب والحضور والخصوصية أكثر من غيره من الضمائر.
- أوصت الدراسة بالنظر في مسائل أسلوبية أخرى في حاجة إلى الكشف عن سبب ورودها على صيغ معينة.

المقدمة :

الحمد الله العالم بما في الضمائر، المطلع على السرائر، والصلاة والسلام على أنزه خلقه ضميرا وأطهرهم سريرة، سيد العباد وخير من تكلم بالضاد، وبعد :

فقد لفت نظري - في أثناء تلاوة القرآن الكريم - أن ضمائر الجمع المتكلم الخاصة بالله - عز وجل - كثيرة جدا بحيث يصعب حصرها صعوبة بالغة، في مقابل قلة ضمائر المفرد المتكلم له - عز وجل - بالرغم من أن الأصل في العربية أن يجئ ضمير المفرد للمفرد والجمع للجمع، وإن كان يجوز أن يجئ الثاني مكان الأول. أي فليست ثمة قواعد نحوية تمنع من استخدام أحد الضميرين دون الآخر - لمن يتحدث عن نفسه مفردا - فكلاهما أعني ضميري الجمع والمفرد تتيحه اللغة والنحو لمن يتحدث عن نفسه مفردا.

وهنا يكمن التحدي: أيهما الأولى والأفضل؟ وفي أيهما يتحقق المغزى البلاغي وروح الجمال الفني ويتأتى الإتقان الكامل؟

وأما حين تحدد القواعد اللغوية والنحوية استخداما واحدا ولا خيارات بعد ذلك فلعل ذلك يكون أيسر من التخيير، وأهون من تعدد السبل. لأن الناظم أو المتكلم سوف يسلك تلك السبيل الواحدة.

ومن المعلوم أن البلاغة لا تراعي الخطأ والصواب فحسب، أو ما يجوز وما لا يجوز فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى سياقات الجمال، فمهمة البليغ أن ينتخب الأجمل من الجميل المتعدد، والأفضل من الفاضل المتنوع. ومن هنا كان هذا التساؤل: لم استخدم القرآن الكريم ضمائر المفرد المتكلم - لله عز وجل - في مواضع دون مواضع ؟ هذا ما يحاول البحث أن يجيب عنه.
وقد جاءت خطة البحث كالتالي :

- المقدمة.
- تمهيد عن ضمائر الجلالة في القرآن وموقع ضمير المتكلم المفرد بينها.
- دراسة موضوعية لضمير المتكلم المفرد.
- دراسة للسمات الأسلوبية لسياق ضمير المتكلم المفرد.
- الخاتمة.

تمهيد :

من المعلوم أن الله سبحانه يتحدث عن نفسه في كتابه العزيز بأسماء الجلالة الظاهرة مثل : الله، ورب، وذلك كقوله[1] : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ [النساء:١١]، وكقوله: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾ [النحل:٦٨]، وبصفاته الظاهرة مثل: العلي القدير، وبالضمائر المتحدثة عنه والراجعة إليه، ويأتي هذا المبحث ليتناول أحوال هذه الضمائر المسندة إلى أفعاله أو أسمائه الواردة في القرآن الكريم، وهو الأمر الذي يمهد لدراسة ضمير المتكلم (موضوع هذه الدراسة) ويعرف بموقعه من بين سائر الضمائر.

أولا : ضمير المتكلم .. تنحصر ضمائر المتكلم في :

أ) الضمائر المتصلة :

١ . تاء الفاعل : وتكون في محل رفع مثل : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة:٣]

٢. نا : وتكون في محل رفع مثل: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء:٧٠].

وفي محل جر بالإضافة مثل: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢]

وفي محل جر بحرف الجر مثل : ﴿ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [ق:٤٣]

وفي محل نصب للمفعولين : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ [الزخرف:٥٥]

ب) الضمائر المنفصلة ، وتنحصر في :

أنا للمفرد: وتكون في محل رفع مثل: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [طه:١٤]

نحن للجمع: وتكون في محل رفع مثل: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ ﴾ [يوسف: ٣]

وللمثنى: مثل قول الرجلين أو المرأتين : نحن نمشي، هذا كتابنا.

أي فليس للمثنى المتكلم ضمير خاص به لأنه داخل في ضمير الجمع. ولا يسوغ أن يجيء ضمير الجمع – في معنى المثنى – لله عز وجل لأنه واحد لا ثاني له.

إياي للمفرد : وتكون في محل نصب مثل: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]

إيانا للجمع : وتكون في محل نصب – ولم ترد في القرآن لله - مثل : ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴾ [يونس:٢٨].

وللمثنى- ولا يسوغ مجيئها لله- .

ج) الضمائر المستترة :

وتكون في الأفعال المضارعة المبدوءة بهمزة المضارعة مثل: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ ﴾ أي أنا [يس:٦٠].

وفي الأفعال المضارعة المبدوءة بنون المضارعة مثل: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أي نحن [الأعراف:١٠١].

وإذا كان يتوهم أن ثمة شبهة تنشأ من ورود هذه الصيغة ـ ضمير الجمع المتكلم ـ له سبحانه فإنه يجاب عن ذلك بأمور :

أولها : أن هذا الأسلوب شائع في العربية- أي في حديث المفرد عن نفسه – وهو يرمي إلى مغزى بلاغي هو الإشعار بالفخامة والعظمة ، فإذا كان هذا سائغا في حق المخلوقين فالله أحق به وأولى.

ثانيها : أن معظم ما جاء في القرآن على هذه الصيغة يلحظ فيه إفادة تضمين الملائكة في تلك الأحداث.

على أن هذا الاشتراك ـ بين الله وملائكته ـ لا يقدح في الألوهية أو الوحدانية أو القدرة ألبتة. لأنه لا يتدخل في حق من حقوق الله فضلا عن أن ينازعه فيه أحد. كيف وهو سبحانه الذي خوّل الملائكة بفعله، بل أمرهم فامتثلوا لأوامره: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

كما أن هذا الأسلوب – ضمير الجمع المتكلم - يتفاوت فيه قصد هذا الاشتراك تصريحا وتلميحا ، وذلك بنوع النسق الأسلوبي الكامل الذي وردت فيه هذه الضمائر.

ففي آيات الصافات مثلا : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات:١٦٥،١٦٦]. وآية فصلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى

ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣٠، ٣١] . نلحظ حضور الملائكة أقوى منه في آيات أخر غيرها من مثل قوله عز وجل: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٢، ٨١]. هنا نلحظ اضمحلال ذلك الاشتراك وربما عدمه.

ويتجلى هذا التضمين قويا في قصة الخضر في سورة الكهف وذلك في قوله عز وجل: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴾ [الكهف: ٧٩، ٨٠، ٨١].

وفي آيات سورة مريم: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ [مريم : ٦٣، ٦٤].

يتضح من سير الأسلوب بضمائر الجمع المتكلم سيراً واحداً اشتراك الله والملائكة، لكن عند التأمل يتبين أن الموضع الأول يختص به تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم:٦٣]، والموضع الثاني بالملائكة: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا

بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، وتجاورهما كأنه يشعر برجوع الضمائر إلى مرجع واحد.

ونظير ذلك ما ورد في بعض الآيات من تجاور ضمائر المتكلم - لله عز وجل وللرسول عليه الصلاة والسلام - تجاورا سائغا في إسناد الأفعال والأحداث إليها ـ أي إلى هذه الضمائر ـ ولكنها مختلفة فيمن ترجع إليه. ومع اختلافها في المرجع تبدو في انسجام تام حتى لا يكاد القارئ يفطن إلى اختلافها، أو الانتقال من صاحب ضمير إلى صاحب ضمير آخر.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فالخطاب للمشركين في قوله (أتل عليكم) من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والضمير في الفعل (أتل) راجع إليه، ثم قالت الآية- وما يزال هو المتحدث أي الناقل عن ربه: (نحن نرزقكم) فكأن الضمير نحن والضمير في الفعل نرزق راجعان إليه أيضا، وإنما المقصود هو الله تبارك وتعالى لأنه هو الرازق الحقيقي لعباده، وإنما ساغ تجاور الضمائر وامتزاجها لأن محمدا هو الناطق باسم ربه الذي أرسله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

الأمر الثالث في دفع تلك الشبهة:

أن ما ورد من صيغ الجمع مما يتبع الضمائر من الأسماء والصفات مثل كلمة (الصافون) في قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٥]، لم يكن لجمع الذات، وإنما للصفات، ذلك أن الصفة يسوغ تفخيمها وتعظيمها ومن ثم جمعها، أما الذات

فإنها إذا جمعت تفيد التعدد، ومن هنا امتنع جمعها، فالله سبحانه واحد في ذاته، وله صفات متعددة كثيرة، وكل صفه لها مطلق التعظيم والتفخيم.

على أن وصف الله سبحانه نفسه بالجمع المذكر السالم مثل (فاعلون، قادرون) قليل جدا إذا نسب إلى الصفات المفردة مثل: فعال، قدير.

ومما جاء من هذه الأوصاف قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥]. وقوله: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة:٢٢]. وقوله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:١٦]. وقوله: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧]. وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٦، ١٧]. وقوله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٨]. وقوله: ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨١]. وقوله: ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٢].

وقد يجيء جمع المذكر السالم وصفا بطريق الإضافة وذلك في حالة التفضيل كقوله عز وجل: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [الصافات:١٢٥]. وقوله: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣].

ثانيا : ضمير المخاطب

لم يرد في القرآن حديث الله مع نفسه بالخطاب، أي لم يرد ضمير المخاطب موجها منه إليه سبحانه، ـ وإن كان ذلك جائزا في العربية بل هو شائع فيها- ، فقد يقول أحدنا وهو يخاطب نفسه : لم فعلتَ ذلك- بفتح التاء- .

ولا أعني أسلوب خطاب النفس أي خطاب الإنسان لنفسه المؤنثة على سبيل التجريد، فيقول: افعلي، لم فعلتِ ـ بكسر التاء ـ وهذا شائع في العربية أيضا.

وله شواهد كثيرة منها قول قطري بن الفجاءة المشهور :

أقول لها وقد جاشت حياء   من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو طلبتِ حياة يوم   على الأجل الذي لك لن تطاعي[٢]

وقول ابن الإطنابة – وتنسب لقطري أيضا – :

وقولي كلما جشأت وجاشت   رويدك تحمدي أو تستريحي[٣]

وهذه أساليب من حديث النفس. وحديث النفس – في كثير من الأحيان – يدل على الانفعال أو التردد أو تأنيب الضمير، أو العتاب الذاتي، أو التركز حول الذات، أو الانكفاء حول الذات بخطابها خطابا داخليا، أو التشجيع الذاتي، أي دفع النفس إلى شيء تهابه وتتردد فيه، أو زجرها عن شيء ترغبه، وهذه كلها أشياء لا تتصور في حق المولى عز وجل، ومن هنا خلا القرآن الكريم من هذا الأسلوب لأن تلك الحالات النفسية ممتنعة في حقه جل جلاله.

أما ضمير المفرد المخاطب الموجه من غيره إليه فهو سائغ جائز بل هو الأصل في ذلك، كقوله – عز وجل – عن يونس عيه السلام : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وإذا كان لله أن يتحدث عن نفسه بضمير الجمع فإن المخلوقين ليس لهم ذلك، أي ليس لهم استخدام ضمير الجمع في خطابه سبحانه، مثل أن يقال: خلقتم السموات، كونوا لنا يا الله، اغفروا لنا يا الله، وذلك حتى لا يوهم التعدد. بل

بضمير الإفراد دون غيره من الضمائر. أما استخدام ضمير الجمع في حق المخلوقين فمقبول سائغ جدا، بل جميل بليغ، وهو في مقام التعظيم والتفخيم كثير، فتقول لرجل تقدره وتعظمه وقد أسدى إليك معروفا: جزاكم الله خيرا، هذا من فضلكم.

وكخطاب الناس للملوك والمسؤلين الكبار مثل قول شاعرهم يخاطب رجلا واحدا وهو الخليفة: ألستم خير من ركب المطايا(٤)

وقد ورد في القرآن ما يشكل من هذا الأسلوب في موضع واحد في سورة (المؤمنون) وذلك في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٩]. فقد يبدو أن هذا الأسلوب صريح في خطاب الله بضمير الجمع، وهكذا ارتضاه الزمخشري واستشهد له، فقال: إنه (خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فإن شئتِ حرمت النساء سواكم.

وقوله: ألا فارحموني يا إله محمد)(٥)

ولست أرى ما رآه الزمخشري - رحمه الله -، فالخطاب في البيت مختلف عن الخطاب في الآية، ذلك أن الخطاب في البيت موجه إلى الله وحده بدليل النداء*، أما في الآية فموجه إلى الله أولا باعتبار الأمر والقدرة، و إلى الملائكة ثانيا باعتبار التنفيذ وتطبيق الأمر، ولما أشرت إليه من أن خطاب الله بضمير الجمع .. وإن كان هذا الأسلوب صحيحا في العربية- فهو غير مستساغ ذوقا معه جل جلاله لإيهام التعدد، والدليل على ذلك خلو القرآن - على تأويلنا للآية السابقة - ، وخلو أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم- وأدعيته، وكلام الصحابة والتابعين وعلماء الأمة ونساكها من ذلك الأسلوب مع كثرة تلك الأحاديث والأدعية والأخبار والمصنفات.

---

* وعلى افتراض ورود هذا الخطاب في حق الله – كما في بيت الشعر – فإن قليل بل نادر جدا ولا يقاس على النادر.

ومما يدل على أن كلمة (ارجعون) في الآية المذكورة ملحوظ فيها خطاب الملائكة أن الزمخشري نفسه قال عندما أورد هذه الآية : (وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان، بل قدوما إلى الله، وأما الكافر فيقول : رب ارجعون)(٦)

وكونه صدّر كلامه بقوله : (رب) لا يناقض ما قلناه، وذلك على تأويل (رب ارجعون) أنه دعا ربه بالإفراد أولاً فقال: رب، فالنداء أولا له وحده عز وجل، ثم الطلب بالرجوع في قوله: ارجعون موجه إليه سبحانه وإلى الملائكة معا لأنهم هم المنفذون لأوامر الله.

ثالثا : ضمير الغائب

ورد في القرآن حديث الله عن نفسه بضمير الغائب كثيرا كقوله – وقد ذكر لفظ الجلالة معه- : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر:٢٢]. وكقوله – ولم يذكر لفظ الجلالة معه- : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:١٣].

وورد حديث غيره عنه كقول صاحب الجنة: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٣٨]. و كل هذا سائغ مشهور.

ولم يرد ضمير الجمع الغائب له – عز وجل – بلسانه ولا بلسان غيره.

أما أسلوب المثنى فإنه لما كان يفيد التعدد دون العظمة لم تستخدمه العربية في حق المفرد، وهو في حق الله أشد بعدا وحرمة. بل إن ضمير المثنى لا يجوز مطلقا في حق الله لا في الخطاب ولا في الغيبة، مثل: الحمد لهما أي له سبحانه، ومثل : لكما الشكر أي لك يا الله. وهو غير صالح في العربية من الأصل أي أن تستخدم للمفرد ضمير المثنى.

الدراسة الموضوعية :

بعد أن لفت نظر الباحث في القرآن الكريم قلة ضمير المتكلم المفرد لله عز وجل باعتباره هو الأصل في حديث المفرد عن نفسه، شرعت أرقب هذه الملحوظة فيما أتلوه من سور القرآن فتأكدت لي قلته، بل خلو كثير من السور منه، فافترضت أنه لا بد أن يكون لمجيء ضمائر المفرد المتكلم على هذا النحو القليل- مع أنها الأصل - مغزى أو إشارة إلى أن القرآن يراعي دلالة معينه أو مقتضى بلاغيا خاصا فاخترت أربع عشرة سورة اختيارا عشوائيا . باعتبارها عينة تمثل سور القرآن من أوله ووسطه وآخره- ، لكي أخرج بإحصائية دقيقة عن عدد ضمائر المتكلم المفرد- لله عز وجل- في هذه السور، وما القضايا التي سيقت فيها ؟ وما يعني إسناد الكلمة إلى ضمير الجلالة المتكلم ؟

فكانت الإحصائية كما يوضح الجدول الآتي لضمير المتكلم المفرد والجمع في السور القرآنية موضوع الدراسة كالتالي :

السورة	عدد آياتها	ضمائر المتكلم (المفرد)	ضمائر المتكلم (الجمع)	ضمائر المتكلم (مجموع الضميرين)	نسبة ضمير المفرد إلى الجمع
الفاتحة	٧	-	-	-	-
الأنعام	١٦٥	٢	٧٦	٧٨	٢،٦٪
الأعراف	٢٠٦	٢٣	١٠٣	١٢٦	٢٢،٣٣٪
الكهف	١١٠	٤	٦٠	٦٤	٦،٦٪
مريم	٩٨	٣	٤٧	٥٠	٦،٥٪
طه	١٣٥	٢٣	٤٤	٦٧	٥٢،٢٧٪
الأنبياء	١١٢	٥	١٠٠	١٠٥	٥ ٪
ق	٤٥	٥	٢٧	٣٢	١٨،٥٪

النبأ	٤٠	-	١٤	١٤	-
البروج	٢٢	-	-	-	-
الفجر	٣٠	٢	-	٢	-
الإخلاص	٤	-	-	-	-
الفلق	٥	-	-	-	-
الناس	٦	-	-	-	-
المجموع	٩٨٥				

تبين بعد هذه الإحصائية وبعد دراسة المواضع التي وردت فيها ضمائر المتكلم لله – عز وجل- جمعا وإفرادا ما يلي :

١. أن الأسلوب القرآني- في هذه السور - يؤثر استخدام ضمائر الجمع المتكلم على ضمائر المفرد المتكلم بدليل أن الإحصائية فيها تشير إلى :
٢. أن ضمائر المفرد المتكلم قليلة جدا إذا نسبت إلى ضمائر الجمع المتكلم، فضلا عن نسبتها إليها مع الضمائر الأخرى.
٣. أنه ليس هناك من علاقة مطردة (ثابتة) في النسبة بين أعداد هذين النوعين من الضمائر
٤. أن المواضع التي استخدمت فيها ضمائر الجمع المتكلم متنوعة في موضوعاتها وأهدافها ودلالاتها ، في حين أن المواضع التي استخدمت فيها ضمائر المفرد المتكلم محددة الدلالات والموضوعات. أي أن هذه الضمائر لا تجيء إلا في سياق معان ودلالات معينة لاتكاد تخرج عنها ، و ليس العكس، أي أن تلك الدلالات قد تجيء مع غير هذه الضمائر.

وإذا شئت أيها القارئ الكريم أن تتحقق من هذا الحكم فلتعمد إلى أي سورة من القرآن دون استثناء، فسوف تجد أن نسبة ورود ضمير الجمع المتكلم – له عز وجل – أضعاف ضمير المتكلم المفرد.

ولتكن تلك السورة مثلا- سورة الأنبياء – استقرئها ضميرا ضميرا فسوف ترى أن نسبة ضمائر المفرد المتكلم إلى ضمائر الجمع المتكلم (٥ ٪).

وأن جميع ما فيها من ضمائر المتكلم لله- وهي ثلاثة مواضع- لم تخرج عن معاني العبودية والوحدانية.

الأولى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

الثانية : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

الثالثة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

والتدبر في هذه المواضع الثلاثة يدلنا دلالة قاطعة على أن إفراد ضمير المتكلم مقترن بهذا المقام، فالسورة مليئة بعشرات ضمائر المتكلم للجمع في غير هذه المقامات، حتى إذا جاء الحديث عن مقام العبودية أو الوحدانية أصبحت ضمائر المتكلم مفردة بل في الآية الواحدة نفسها : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

ففي أول الآية يتصدر ضمير الجمع، ثم يتحول إلى المفرد في آخرها مراعاة لمقام العبودية لأنه يتطلب الإفراد، ومثلها الآية الأخرى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمرسل والموحي هو الله وذلك في صدر الآية، وهو نفسه الإله الواحد والمخصوص بالعبادة في نهاية الآية لكن السياق يقتضي جمع الضمير أولاوإفراده آخرا.

وكذلك في سورة الأنعام لا تقف من مجموع- ١٦٥ – آية على ضمائر للمتكلم المفرد له- عز وجل – سوى ضمير واحد ورد في مقام التوعد، وهو قوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٠]. مع أن ضمائر المتكلم الجمع تملأ السورة، بل إن كثيرا من السور تخلو من ضمائر المتكلم المفرد له- عز وجل- بالكلية، في حين أن قليلا من السور تخلو من ضمائر الجمع المتكلم.

٥. بعد الخروج بتلك النتائج الإحصائية والموضوعية في السور الأربع عشرة المدرجة في الجدول وبعد قراءة القرآن الكريم كاملا على ضوء تلك النتائج تبين أن ضمائر الجمع المتكلم تجري على النمط المذكور نفسه، أي في الكثرة وتنوع الأغراض والموضوعات، وأن ضمائر المفرد المتكلم تجري على النمط المذكور نفسه أيضا، أي في القلة وتحديد الموضوعات.

٦. بعد قراءة القرآن كاملا تبين أن كثيرا من السور تخلو من ضمائر المتكلم المفرد له- عز وجل- بالكلية، في حين أن قليلا من السور تخلو من ضمائر الجمع المتكلم.

٧. بعد دراسة تلك الدلالات المرتبطة بضمائر المتكلف على مستوى القرآن كله – إذا هي مجال هذا البحث – جاءت على المقامات التالية (٧) :

- مقام الوحدانية
- مقام العبودية
- مقام خطاب المقربين
- مقام التعهد
- مقام التوعد

أولا مقام الوحدانية :

المقصود بهذا المقام ما تذكر فيه وحدانية الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وما يترتب عليها من إخلاص العبودية من الخلق للخالق. وبهذا يصبح شاملا لمقامين معا ، ولكنني سوف أفرد كلا منهما بعنوانه لورود أحدهما مستقلا دون الآخر أحيانا.

وهذا المقام- مقام الوحدانية- أولى ما يكون فيه الضمير المتكلم مفردا لا جمعا ، لأن الجمع يوهم التعدد في هذا المقام. وإن كان لا يوهمه في مقامات أخرى.

وتفيد سياقات هذا المقام أن الله واحد لا شريك له في ألوهيته وربوبيته ، وأن له الفردية المطلقة في ذلك.

ومن الواضح قوة المناسبة بين مقام الوحدانية وبين إفراد ضمير المتكلم ، فلا يسوغ أن يجئ ضمير الجمع في هذا المقام.

والشواهد على ذلك قائمة بينة وعديدة. إذ يتضح ارتباط الضمير المفرد بهذا المقام في عدة آيات كريمة ، منها قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

تأمل ارتباط الوحدانية بالعبودية ثم تأمل استخدام ضمير المتكلم جمعا في صدر الآية - نوحي - ، لأن الوحي يفيد المهابة والجلالة ، كما يتطلب الطاعة من الموحى إليه

للموحي، ثم لما بلغ إفادة الوحدانية والعبودية بعدها رجع فأفرد ضمير المتكلم - أنا -، - فاعبدون -.

وفي مقام الوحدانية أيضا يتضح هذا الارتباط في تحويل الضمير من الغيبة إلى المتكلم لأنه أقوى حضورا وأليق بخصوصية التوحيد من الضمائر الأخرى.

ففي هذه الآية الكريمة: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢]. كانت الضمائر - له عز وجل - تجري على ضمير الغيبة حتى إذا أراد إفادة الوحدانية تحول الضمير من الغيبة إلى التكلم، فتغير الأسلوب لأجل ذلك، وهو قمين أن يتغير، فلم يجر الأسلوب على ما هو عليه من حيث الضمائر، أي هكذا: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا هو فاتقوه، وإن كان سائغا وجميلا في مواضع أخرى. كذلك أولى ألا يكون الضمير الأخير جمعا وإن كان متكلما أي هكذا " أنه لا إله إلا أنا فاتقونا ".

وتدخل في هذا المقام آيات لم تصرح بمعاني الوحدانية مباشرة ولكنها بعد التأمل تتبين أنها داخلة في هذا المقام وإن لم تكن تنص عليه، فاقرأ هذه الآية الكريمة والحظ فيها معنى الوحدانية وإخلاص العمل له عز وجل وابتغاء وجهه الكريم دون أي دافع آخر يدفع المؤمن إلى هذا العمل، ومجيئها بضمير الإفراد: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١].

ثانيا مقام العبودية:

المراد بهذا المقام ما يذكر فيه من عبودية الخلق للخالق عز وجل، وما يرتبط بهذه العبودية من معان أخرى متصلة بها، كإخلاص العبودية له وهو ما يقتضيه مقام الوحدانية السابق.

ومن التأمل اليسير في مقامي الوحدانية والعبودية يتبين أن ثانيهما مترتب على أولهما، فإن من يؤمن بوحدانية الله وألوهيته عرف أنه هو المستحق للعبادة وحده فأخلصها له، إذن فارتباط هذين المقامين هذا الارتباط الوثيق يجعلهما مقاما واحدا.(٨)

وقد وردا معا في عدة مواضع من القرآن فتأكد استخدام ضمير الإفراد لا ضمير الجمع كما في قوله عز وجل: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦]، ففي صدر الآية عبودية، وفي آخرها إخلاص للعبودية وهو نفسه مقام التوحيد، ألا ترى أنه جاء بأسلوب القصر الدال على ذلك (فإياي فاعبدون) أي ولا تعبدوا غيري.

واقرأ هذه الآية من سورة النور التي تدلك على أن المقامين -مقام العبودية والوحدانية- هما شيء واحد، أو هما ركنان لشيء واحد يحصل بقيامهما معا: بالوحدانية باعتبارها اعتقادا، وبإخلاص العبودية له وحده باعتباره تحقيقا وتطبيقا للاعتقاد، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]

ومن الجلي الذي ينبغي أن يلفت النظر أن الآية أسندت أفعال الله إليه بالضمير الغائب في عدة مواضع ثم لما جاء ذكر العبودية تحول الضمير وبشكل مباشر إلى الحضور - المتكلم- لأنه أنسب وأليق بهذا المقام - العبودية - .

ومثل هذا أشرت إليه في مقام الوحدانية عند قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾(٩) [النحل:٢].

وبالمقارنة بين الآيتين السابقتين يتبين أن أحد المقامين ـ وهما في سياق واحد ـ قد يتقدم على الآخر: (أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)، (يعبدونني لا يشركون بي شيئا).

وقد يلتقي مقام العبودية مع مقامات أخرى كما في الآية التالية التي يلتقي فيها مقام التعهد بالإجابة، بمقام العبودية وإخلاص الإيمان له عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

فالعبودية تتطلب قرباً وحضوراً من المولى لعباده (عبادي). والسؤال الخاص من العباد عن الله يتطلب إجابة خاصة ومباشرة خطاب المدعو سبحانه للداعين، وطمأنته لهم بالإجابة والقرب تفضلا وتكرما منه عز وجل. كما يتطلب التنبيه منه عز وجل إلى أن هذه الطمأنة والقبول المباشر والإجابة المضمونة إنما تكون لمن اتصف بالعبودية الخاصة والإيمان الخالص- الوحدانية- . وكل هذه المقامات الثلاثة تقتضي ضمير الإفراد المتكلم فجاء في الآية بأجمل أسلوب وأرشق عبارة.

ومما يؤكد معنى القرب و المباشرة ـ في هذه الآية ـ التقرب من الله إلى عباده المؤمنين والخصوصية التي منحها لهم ـ في هذه البشرى ـ أنه قال بعد السؤال: (فإني قريب) دون أن يجئ بقوله: قل أو فقل وقد قدره المفسرون بذلك(١٠)، كما هو الجاري

في سائر أساليب الأسئلة التي وردت في القرآن الكريم، هذا هو الموضع الوحيد في ذلك، فحذف القول هنا يفيد عدم وجود الواسطة بينه وبين عباده المؤمنين المستجيبين لأوامره المنصاعين لنواهيه، وكما يفيد أنه يقبل إليهم مباشرة بنفسه فهو يتقبل عنهم مباشرة بنفسه (قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان).

ودلالات القرب والخصوصية والرضا والأمن والإيناس كلها مرتبطة بهذا المقام لأن عباد الله المخلصين خليقون بهذه المعاني فلذا يبشرهم الله بها مسبقا في الدنيا: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف:٦٨]، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨، ٢٦، ٣٠].

قد يقال: ها هي كلمة (عباد) جاءت مضافة إلى ضمير الجمع المتكلم مع أنها داخلة في مقام العبودية معنى ومبنى،(١١) وذلك في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٧١]، وقد سبق أن مقام العبودية، يتطلب إفراد الضمير فكيف يجاب عن هذا ؟

الإجابة عن هذا أنني لم أقرر أن مقامات العبودية كلها وردت في سياق ضمير المتكلم وإنما العكس، أي أن ضمير الإفراد المتكلم له- عز وجل- لا يرد إلا في هذه المقامات المذكورة ومنها مقام العبودية. هذا أمر.

والأمر الآخر أن الأسلوب يراعي أحوج الدلالتين وما يتطلبه السياق في حينه، فكلمة (عباد) في الآية السابقة قد جاءت في سياق الدلالة على العظمة والقدرة والغلبة لصالح هؤلاء العباد على من طغى وبغى عليهم أو عاندهم وسخر منهم، أو ترصد لهم بالأذى والمكيدة. وهذه معان تقتضي أسلوب المنعة والعزة والتعظيم

والتفخيم الذي تناسبه صيغة الجمع لا صيغة الإفراد، فراعاها السياق دون المقام الآخر- العبودية- لأن الحديث ليس عن العبودية والعبادة بمقدار ما هو عن القدرة والنصرة، انظر إلى الآيات كاملة: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ الصافات:١٧١، ١٧٢، ١٧٣].

وهكذا يكون النظر إلى ما شابه هذه الآية من آيات أخرى. فقد يقتضي السياق لكلمة (عباد) معنى القدرة على تصريف شؤون العباد والتدبير والحكمة في هذا التصريف، وهذا المعنى يناسبه ضمير الجمع كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

وهكذا قد تستشف دلالات معينة أخرى فيما يرد من هذه الكلمات في سياقها الذي جاءت فيه بضمير الجمع لا بضمير الإفراد. فكلمة (عبدنا) في هذه الآية: ﴿ ... وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤١، ٤٢]. لم ترد في معنى العبودية وحدها وإنما لذلك وللإشارة إلى ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم - يوم التقىالجمعان أي يوم المعركة، فهذا السياق سياق حديث عن الحرب وما فعل الله بالأعداء وهو يناسب ضمير الجمع.

وكذلك قوله: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ [ص:١٧، ٢٠]. وكذلك قوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ [ص:٤١]، وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [ص:٤٥].

هذه آيات وردت في سياق تسخير الله آياته ومعجزاته العجيبة والعظيمة لأنبيائه ونصره لهم على أعدائه وأعدائهم. وهذا يستلزم ضمير الجمع الدال على القدرة والغلبة.

ثالثا: مقام خطاب المقربين

التقريب معناه هنا الاصطفاء والخصوصية في المحاورة والخطاب، وما يتلو ذلك من النظر والرعاية دون واسطة مكلفة من الخلق كالملائكة وغيرهم.

والعلة لاستخدام ضمير المتكلم هنا هو المحور الخطابي نفسه، وإن كان هذا المقام يحمل دلالات يستدعيها موقف الخطاب، مثل طمأنة الله لمقربيه ومنحهم الرضا أو توجيه العتاب لمحبوبيه، أوتأكيد صلتهم به وقربه منهم.

والمقصود بالمقربين من يصطفيهم الله من خلقه بالخطاب المباشر من أنبيائه ورسله وعباده المخلصين والملائكة المقربين. فخطاب الله لهؤلاء يجئ مع ضمير المتكلم المفرد له- سبحانه- ، فلا يتساوى خطابه لهم مع خطابه لمن سواهم من سائر الناس والخلق، ولا يتماثل هؤلاء وهؤلاء في مستوى الخطاب نفسه رقة وشفافية وحضورا، لأن ضمير المتكلم المفرد ـ كما عرفنا ـ أقوى حضورا للمتكلم، وأشرف مزية في الخصوصية من سائر الضمائر.

وكان لهذا المقام هذا الشرف و المزية و صار من أشرف المراتب والمقامات، مشتملا على أسمى المعاني والدلالات لأن دلالة الضمير فيه أن الله تبارك وتعالى هو الذي حضر إلى عبده، وهو الذي تقرب إلى حبيبه، وإذا صدق العبد في قربه من مولاه، ودخل في حظيرة عبوديته صدقا وإخلاصا يكون قد حضر إلى الله وحضر الله إليه، وكأنما ذابت الحواجز بينهما، لأن الحضور خلاف الغيبة، وبالمقارنة بين حضور العبد إلى الله وحضور الله إلى العبد يكون الحضور من الله أقوى وأعمق، وهو للعبد أشرف وأسمى، وهذا معنى الحديث القدسي (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها..)(١٢)

ولا يأتي خطاب الله للمؤمنين أو المسلمين عامة بضمير المتكلم المفرد له – عز وجل - إلا أن ينزل منزلة خطاب المقربين والخاصة، ليشجعهم وليثير فيهم عاطفة المحبة وداعي الامتثال حتى كأنهم أصبحوا من المقربين الذين يباشرهم الله بخطابه كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

وكقوله يخاطب بني إسرائيل: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠].

ويوشك هذا المقام ألا ينفك عن ضمير المتكلم المفرد وخاصة في حوار الله مع موسى وأنه مرتبط بالخطاب المباشر له، ثم إنه ينفك إلى ضمير الجمع فيما عدا ذلك وفي هذه الآيات شاهد جلي لذلك: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤١- ١٤٦].

وهكذا نرى الأسلوب القرآني يجيء في خطاب الله لموسى – عليه السلام- بصيغة الضمير المفرد له- عز وجل- حين يحاوره، لأن مقام المحاورة الخاصة يستلزم أسلوب الحضور المباشر، ولكن في الإخبار عن تلك المحاورة وحكايتها لم

يحتج الأسلوب إلى الفردية والخصوصية بل لعله يلمح إلى معنى الجلال والهيبة فتجئ الصيغة بالجمع: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ (١٣) [مريم:٥٢].

وكأن ثمة فرقا بين نقل المحاورة نفسها، وبين نقل حكايتها أو الإخبار عنها.

كما يلمح في هذا التنويع في الصيغ يلمح التنويع في تصوير المشهد أوالموقف، فما ذكر في السياق الأول لا حاجة إليه أن يذكر في السياق الثاني، ومالم يذكر في الثاني يقتضيه السياق الثالث، ثم هو كما يقول البلاغيون في حكمة الحذف : إن (حذف فضول الألفاظ يجري مجرى الأساس الذي بنيت عليه الأساليب البليغة..) والذي من غاياته (بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه ليقع السامع على مراد الكلام، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير ويستفز حسك وملكاتك، وكلما كان أقدر على تنشيط هذه القدرات كان أدخل في القلب، وأمس بسرائر النفس المشوقة دائما بالأشياء التي تومض ولا تتجلى، وتتقنع ولا تتبدل)(١٤)

وخطاب الله المباشر مع المقربين يتناول محاور عدة تكون مجال حديث الله مع مخاطبيه، من أظهرها:

الامتنان منه عز وجل لخاصته باصطفائهم على غيرهم من الخلق كما في قوله سبحانه ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤]. و قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة:١١٠].

وكقوله متكرما وممتنا على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ـ ومنزلا لهم منزلة الصفوة من خاصته إذ خاطبهم مخاطبة المقربين في أسلوب يشبه أساليب الخصوصية والتقريب : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]

ومن تلك المحاور طمأنة الله لخاصته بالرعاية والحفظ، كقوله سبحانه في خطابه لموسى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل:٩، ١٠، ١١]. (١١).

وكقوله: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٣٩: ٤١] . ومما يدخل في سياق ضمير المتكلم- في آية طه- إدخال الله لموسى معه في صفة العداوة بينهما وبين فرعون (عدو لي وعدوله) فهذا يعطي دلالة المحبة والتقريب والخصوصية إذ أصبحت دلالة القرب والتكريم

لموسى ـ ع ـ مفهومة بفضل هذا الأسلوب : ضمير المتكلم المفرد له- عز وجل- الذي دل على خصوصية موسى في شأن يهتم الله به بنفسه. والذي أفاد أن هذا الخطاب باشر موسى عليه السلام، وأن هذا النبي الكريم تحوطه العناية الإلهية المباشرة، والرعاية الربانية الخاصة دون واسطة.

يقول الزمخشري في تفسير قوله : (ولتصنع على عيني) : (لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، وتقول للصائغ : اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي)(١٥)

ولم ترد كلمة عين أو أعين مضافة إلى ضمير المفرد في غير هذا الموضع، وكل ماورد من ذلك إنما ورد مضافا إلى ضمير الجمع، وذلك في أربعة مواضع هي:

﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧].

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور:٤٨].

﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر:١٤].

وكل هذه المواضع الأربعة وردت في سياق يختلف عن سياق تلك الآية- في سورة طه - ، هنا لحظ معنى الرعاية والتربية، وهناك في الآيات الأربع لحظ معنى النصرة والدفاع عن الأنبياء الذين وردت في شأنهم، ثلاث منهن في شأن نوح-

عليه السلام- حينما تعرض له قومه بالأذى والسخرية وهو يصنع السفينة أو وهي تجري بهم في موج كالجبال.

وآية الطور كذلك جاءت في سياق الذب والدفاع عن النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معنى يقتضي ضمير الجمع الدال على المنعة والقوة: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور:٤٦، ٤٧، ٤٨].

ومن مواطن خطاب الطمأنة والبشرى للخاصة من أنبيائه خطابه لعيسى- عليه السلام - : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٥].

ومن تلك المحاور التي يستخدم القرآن فيها أسلوب المتكلم المفرد ـ في هذا المقام ـ توجيه الرسل إلى سبيل الدعوة الصحيح مع أقوامهم أو مع ذويهم وأقربائهم، وتأييده لهم بالمعجزات، والبراهين الساطعات.

والشواهد لذلك كثيرة، منها :

خطابه لموسى وهرون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه:٤٢].

وخطابه لنوح- و فيه شيء من العتاب- ، وإنما يكون العتاب من الحبيب إلى الحبيب: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦].

وخطابه لإبراهيم: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤].

وخطابه لزكريا: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم:٩].

وخطابه لمريم: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم:٢١].

وخطابه لآدم وحواء: ﴿ ... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف:٢٢].

وخطابه للرسل جملة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون:٥١]*.

وخطابه للحواريين: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

ومن أبرز تلك المحاور أيضا خطاب الله للملائكة الكرام حين يطلعهم على قضايا غيبية هي غاية في الأهمية، وهي بحيث ينبغي ألا يطلع عليها قبل حدوثها أحد

قد يتساءل القارئ : وأين حظ رسول الله محمد (ص) من هذا الخطاب وهو أشرف المرسلين عند الله؟

الإجابة : أن كل ما بين دفتي القرآن الكريم إنما خطاب من الله لنبيه محمد (ص) خطاب حضور وتشريف وتقريب وخصوصية ومباشرة ورعاية، ويكفيك أن تقرأ (فإنك بأعيننا)، فهو على رأس قائمة المخاطبين وسيد المرسلين والمقربين.

غيرهم وبإذن منه عز وجل واهتمام خاص منه، وذلك مثل إخباره لهم بأنه سيخلق على الأرض خلقا يختلف عن طبيعتهم الملائكية: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٨، ٢٩]. وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص:٧١، ٧٥] .

وهنا قد يقال: كيف يستخدم الأسلوب ضمير المتكلم المفرد له- عز وجل- مع أبغض خلقه وأبعدهم وأعندهم له وهو إبليس؟

الإجابة عن هذا : أن خطاب الله لإبليس ـ نعوذ بالله منه ـ كان تبعا لخطابه عز وجل للملائكة إذ كان إبليس معهم قطعا وذلك ليدخل ضمن الأمر بالسجود، بصرف النظر عن كونه من الملائكة أو من الجن أصلا. فإبليس كان مرفوعا مع الملائكة يعبد الله ويسبحه حتى إذا حلت شقاوته وأمره الله بالسجود عاند وخالف أمر خالقه فشذ عن الملائكة حينئذ بالعصيان (١٦).

والمسألة الأخرى في هذه الآية التي تعلل استخدام ضمير الجلالة المتكلم المفرد- في خطاب إبليس- هي إبداء الاهتمام بمباشرة الأمر والفعل بنفسه تعالى وذلك في قوله (لما خلقت بيدي) ولا يتحقق ذلك الاهتمام بقوله مثلا: لما خلقنا بأيدينا. وإنما أراد السياق- هنا- المباشرة بالضمير المفرد لكي تقوم الحجة على إبليس في معاندة الله حتى فيما يهتم به سبحانه بنفسه مباشرة.

وهذه الخصوصية والاهتمام بمسألة الخلق جاءت في آيات أخرى كذلك في الموقف نفسه كقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٢٨].

أما حين لا يقصد بالخلق خصوصية المباشرة أونحوها فإن الأسلوب إنما يجئ بضمير الجمع، وذلك في مثل قوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقوله: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة:٥٩]

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف:١١]. ففي هذه الآية – وإن كان فيها أمر السجود بعد ذلك- لم يأت ضمير المتكلم المفرد لأن المباشرة لم تكن مقصودة بالأولوية، وإن كانت تفهم من ضمير الجمع أيضا.

ولعل الخلق جاء بصيغ ضمير الجمع لأنه لم يباشره بنفسه وإنما أمر به، فإذا ذهبت خصوصية المباشرة ذهب أسلوب الفردية وجاء أسلوب الجمع، وهو الأكثر ورودا ـ كما أشرنا ـ في الأسلوب القرآني، لأن الخلق حينئذ يراعى فيه معاني العظمة والقدرة والإبداع.

على أن هذا المعنى حين ورد مسندا إلى ضمير المفرد المتكلم إنما ورد مرتبطا بأحد هذه المقامات، فكل ما ورد في القرآن الكريم من ذلك أربعة مواضع :

الأول ورد مقترنا بحوار الله مع إبليس، وهو ـ كما قلنا ـ لاحق في الأصل بأسلوب حوار الله مع الملائكة في قوله: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥]

والثاني ورد مقترنا بمقام العبودية: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

والثالث ورد مقترنا بمقام التوعد: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ [المدثر:١١].

والرابع ورد مقترنا بمقام حوار المقربين وذلك في خطاب الله لزكريا ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم:٩].

رابعا مقام التعهد :

المراد بهذا المقام إعطاء الضمان من الله والتعهد منه بقبول التوبة والغفران والجزاء المرضي للمبشرين وما يتبع ذلك من الترغيب فيه والحث على فعله.

ولا ريب أنك إذا أردت أن تطمئن أحدا تعامل معك بإخلاص واجتهاد فإنك سوف تتعهد له بنفسك، وتطمئنه مباشرة بأنك أنت لا غيرك الذي سوف يتكفل بجزاء يرضاه، وأنك تتولى ذلك الجزاء دون سواك.

وهذا شبيه ـ ولله المثل الأعلى ـ بالمسؤول الكبير الذي يعهد لمرؤوسيه بأموره وأوامره إلا في مسائل يستثنيها لكي يشرف عليها ويتعهدها بنفسه.

ولعل هذا المقام والذي بعده – مقام التوعد – هما أكثر المقامات الخمسة اشتراكا بين ضمير المتكلم وغيره من الضمائر الأخرى، وهذا لايعارض ما قرره

البحث سابقا من أن ضمير المتكلم المفرد له – عز وجل – يختص بالمقامات الخمسة، حيث لم يقرر العكس وهو أن تلك المقامات تختص بضمير المفرد.

والشواهد القرآنية لهذا المقام جلية وكثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٥]. و قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٠]. وقوله عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النمل:١١].

ويلحق بهذا المقام ما يخبر الله به من تحقيق الوعد بالجزاء الحسن، وتصديق ذلك التعهد الذي أخذه على نفسه، وما امتن به على عباده إذ هو داخل فيما تعهد به لهم، وتفضل به عليهم وفاء بوعده وتكرما بمنه.

ها هي آية البقرة شاهد جلي لذلك يبين الله فيها امتنانه وعطاءه لبني إسرائيل: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٤٧].

و قوله: ﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١١١].

ويدخل في هذا المقام أيضا ما تحمله بعض الآيات من تبشير الله لعباده المجاهدين وطمأنته لهم بأنه ناصرهم بجنده في مواقف عصيبة هم في أمس الحاجة عندها إلى عونه ومدده وطمأنته كقوله: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ

مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩]. وقوله: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ [الأنفال:١٢].

خامسا مقام التوعد :

المراد بهذا المقام ما ينذر الله به ذوي المخالفة من أهل الكفر والعصيان والفجور، وما يتوعدهم به من الجزاء الأليم على ذلك.

وقد درج الأسلوب القرآني في مواقف التهديد والوعيد على أن يستخدم ضمير الجمع المتكلم لله- عز وجل- مراعيا معنى تكليف الملائكة بالقيام بالتعذيب وتنفيذ أوامره- عز وجل- في ذلك لكي يشعر أسلوب الجمع بالرهبة والخوف والجلال.

ولكن هذا الأسلوب المذكور- الجمع- يخرج إلى الضمير المفرد المتكلم- لله عز وجل- حيث يتوعد الله العصاة والمخالفين ـ بنفسه ـ بأشد العذاب وأشنع الجزاء لكي يشعر بشدة وطأته على أولئك المخالفين والمعاندين. فإذا كان العذاب الذي يسامونه من الملائكة شديدا أليما، وهم الواسطة وليسوا المصدر الأصلي للعذاب إذا كان ذلك فما الظن إذا كان العذاب نازلا من صاحب الأمر والنهي مباشرة دون واسطة..، لعل هذا ما يريد سياق ضمير المتكلم المفرد أن يشيعه من التخويف والتهديد والترهيب.

من ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج:٤٨].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٥٦، ٥٧]. في هذه الآيات يَبين قَصْدُ ضمير المتكلم المفرد جليا، وذلك حين انتقلت الآية من ضمائر الغيبة أو الجمع إلى هذا الضمير حين استدعاه هذا المقام.

وكأن استخدام ضمير المتكلم المفرد - له سبحانه - في سياق التهديد والوعيد يفيد بأن الله بجلاله الذي لا يماثله جلال، وببطشه الذي لا يشابهه بطش قد تفرغ لحساب هؤلاء المعاندين بنفسه، وتعذيبهم مباشرة بيديه - مع أنه لا يشغله شأن عن شأن - وقد صرحت عدة آيات بهذا التفرغ مستخدمة ضمير المفرد المتكلم لتوحي بهذا المعنى النفسي الجليل فقال عز وجل: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤]، وقال: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١١]. وقال: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر:١١].

فكأن هذه الكلمة (ذرني) تقول دعني أتفرغ لحسابهم وعذابهم، ولعل مما يؤكد أن هذه الكلمة مقصودة في هذا المقام بمعناها المذكور أنها لم تستخدم - مسندة إلى ضمير الجلالة المفرد المتكلم - إلا في هذا المقام، وهو مقام التهديد

والوعيد والمباشرة بالعذاب، وهي بلا ريب كلمة منتقاة مقصودة في سياقها، وملائمة لمقامها، بل كأنها ومفردات أخر مثلها في هذا المقام قد أسندت أو أضيفت إلى ياء المتكلم له- عز وجل - فاكتسبت من إضافتها تلك إيقاعا خاصا عمّق معنى التهديد والتخويف حتى كأن الأسلوب القرآني منحها دلالة خاصة من الرهبة والخوف والوعيد وحملها ما لم تكن تحمله من قبل وذلك بفضل هذه الإضافة، مثل كلمة (مقام) و (نكير) و (نذر) و(عقاب) و(وعيد) و (ذر).

ويأتي هذا المقام في مقابل المقام السابق- الوعد بالضمان للمطيعين المستجيبين المنصاعين لأوامره عز وجل - .، والدليل على ذلك أن هذين المقامين يتجاوران إما تصريحا كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم:٧].

أو يتجاوران تلميحا كما في قوله: ﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم:١٤].

فعلى الرغم من أن هذه الآية في تبشير المؤمنين المراقبين لمقام الله فإنه يفهم منها أن من لم يخف ذلك المقام فويل له من عذاب الله المباشر الذي يقوم به بنفسه.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤]. فهذا وعد ووعيد في الوقت نفسه لأن معناه المفهوم من العبارة المصرح بها: أن غير الظالمين هم الذين ينالون

عهده وسيوفي لهم بما وعدهم، وقد يقال إن هذه الآية الأخيرة واردة في الأصل في حوار الله مع إبراهيم - عليه السلام - وهو داخل في مقام خطاب المقربين فكيف تدخل هذه المقام؟

الإجابة أنه لا تعارض بينهما فقد قلنا: إنه قد يلتقي مقامان من تلك المقامات فيقتضي السياق ضمير المتكلم المفرد فيهما وهو الأمر الذي يؤكد إيراده حينئذ فهو داخل في مقام حوار المقربين، كما أنه داخل في مقام التوعد في آخر الآية.

السمات الأسلوبية لسياق ضمير الجلالة المتكلم المفرد:

يتميز سياق ضمير المتكلم المفرد لله – عز وجل- المصاحب لتلك المقامات بسمات أسلوبية واضحة، منها ما يجيء مع سائر هذه المقامات وهو الالتفات. ومنها ما يختص بمقام دون آخر كما سيأتي بيانه في موضعه:

الالتفات "في سياق ضمير المتكلم":

هذا المبحث لا يتناول الالتفات في الضمائر الأخرى من مخاطب أو غائب أومتكلم على إطلاقه كما في قوله تعالى - مثلا - : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١]. حيث جاء الأسلوب بضمير الغيبة (عبده)، ثم التفت إلى المتكلم الجمع فقال (من آياتنا). وإنما يتناول هذا المبحث من الالتفات ما يتعلق بضمير المتكلم المفرد لله- عز وجل - ، وغيره من الضمائر الواردة معه في سياق واحد.

ولما كان الاستخدام الأكثر لضمائر المتكلم- لله عز وجل - في القرآن الكريم - يأتي بصيغ الجمع ثم يقتضي السياق أن يتحول إلى المفرد المتكلم أو العكس دخل ذلك في أسلوب الالتفات، بل قَلَّ أن تجد أسلوبا فيه ضمير متكلم

مفرد له سبحانه إلا صاحبه هذا اللون البديعي الجميل، وهو نمط من أنماط الأساليب التي لا تخلو من الأسرار البلاغية التي تضفي على أنساقها - كما يقول الزمخشري - : (تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء).(١٧)

ولعل هذا السر الذي ذكره الزمخشري لأسلوب الالتفات يوشك أن يكون عاما في كل سياق يرد فيه هذا الأسلوب البلاغي، وغالبا ما يكتفي البلاغيون عند ذكر جماله وأسراره بنحو ما ذكره الزمخشري، ولكن عند التأمل يجد القارئ - بالإضافة إلى السر البلاغي العام – أن لكل سياق سرا بلاغيا خاصا ينشأ من التركيب والنظم الذي هو فيه، وسياق ضمير المفرد المتكلم لله – عز وجل – في القرآن له أسراره الخاصة به.

وبذلك استحق هذا الأسلوب- الالتفات- أن نوليه عناية خاصة حيث لا يكاد مقام من المقامات المذكورة يخلو منه.

فمما جاء من الالتفات في مقام الوحدانية :

هذه الآية التي تدل دلالة واضحة على مراعاة ضمائر المتكلم لما يقتضيه السياق - في هذا المقام- : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٤، ١٥]..

تأمل أنه كان يستخدم ضمير المتكلم الجمع في وصية الله بالوالدين (وصينا). ثم لما انتقلت الآية إلى حق من حقوق الله وهو إخلاص الشكر له- مما يستدعي التخصيص له عز وجل والإخلاص- برز ضمير المتكلم المفرد في السياق (اشكر

لي)، ولكن هذا الشكر بدا مقترنا بشيئين، الأول: الشكر للوالدين، مما يدل على عظمة حقهما كما ورد ذلك في آية أخرى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء:٢٣] والثاني: النهي عن الشرك وهو نفسه إخلاص الاعتقاد بالوحدانية.

ومما جاء من أسلوب الالتفات في مقام العبودية :

قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف:١٠٢]، فكما عرفنا في المقامات السابقة جريان هذا الأسلوب ودقته في ذلك، أعني ارتباط ضمير المتكلم المفرد بهذه المقامات ارتباطا دقيقا، فهنا كذلك يجري أسلوب هذا الضمير في سياقات هذا المقام بدقة وحسبان مع نظيره ضمير الجمع المتكلم، وحينئذ يتجلى جمال الالتفات بينهما ودقة استخدام هذا دون ذاك أو العكس.

ففي الآية السابقة ضميران للمتكلم له- عز وجل- قريبان متجاوران، وعلى الرغم من قربهما واتحاد مرجعهما فقد اختلف الأول عن الثاني فالأول ضمير المتكلم المفرد وهو يناسب مقام العبودية فجاء مفردا (عبادي).

والثاني ضمير المتكلم الجمع، وهو يناسب مقام الانتقام والبطش فجاء جمعا (أعتدنا) وهنا تتجلى روعة الأسلوب القرآني الذي يرد فيه الالتفات والتحول من ضمير إلى ضمير مراعيا كل مقام بما يستدعيه، دون أن يشعر القارئ بأي نشاز أو اضطراب.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]. سارت الآية كما ترى على ضمائر الغائب حتى إذا بلغت مقام العبودية تحولت إلى ضمائر المفرد المتكلم في أسلوب منسجم غير ناشز.

وقل أن يخلو هذا المقام من أسلوب الالتفات، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

ولو شئت أن تقارن بين الآيات السابقة التي اشتملت على الالتفات وبين هذه الآية الأخيرة لم تجد منه شيئا في هذه الآية، ولم يختلف الأسلوب في أول الآية عن آخرها كما هو الحال في الآيات السابقة، ذلك أن المقامات فيها - وهي مقامات التعهد وإخلاص العبودية والإيمان - تقتضي الإبقاء على هذا الأسلوب نفسه – ضمير المفرد المتكلم- لما فيه من الخصوصية الربانية التي تبشر المؤمن وتحبب إليه الرجوع والإنابة والإخلاص لله، فلا يسوغ أن يكون الأسلوب في آخر الآية مختلفا عنه في أولها أي هكذا مثلا:

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لنا وليؤمنوا بنا. أو : وإذا سألك عبادي عني فإننا قريبون. أو: إذا سألك عبادنا عنا فإني قريب، لكن ساغ الالتفات في الآيات السابقة لما ذكرنا.

ومما جاء من الالتفات في مقام خطاب المقربين:

خطاب الله لأم موسى: ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ ... الآية ﴾ [طه:٣٨، ٣٩].

فهذا شاهد جلي على استخدام ضمير المتكلم المفرد في خطاب من يختصهم الله بعنايته ويكلؤهم برعايته إذ ظل الأسلوب ـ في خمس آيات ـ على ضمير المفرد المتكلم مع خطاب الله لأم موسى ثم لموسى وهو ـ مقام المقربين المشار إليه- حتى إذا اقتضى السياق الحديث عن القدرة والقوة والامتحان انتقل إلى ضمير الجمع: ﴿ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٠].

ومن الالتفات الرائع من ضمير إلى آخر- في مقام التوعد- والذي إنما جاء مراعيا هذه المقام قوله- عز وجل- : ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥]، فهنا اختلف ضمير المتكلم في صدر الآية (نحن) للجمع عن آخرها (وعيد) للمفرد لما أشرنا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

ففي هذه الآية يتجلى قصد ضمير المتكلم المفرد واضحا في مقام التوعد، وذلك حين التفت الأسلوب من ضمير الغيبة له عز وجل (بآيات الله ولقآئه) إلى ضمير

التكلم (يئسوا من رحمتي)، الأول في وصف الكفار بالكفر بآياته فجاء ضميره غائبا.

والثاني في سلب الرحمة منهم تهديدا ووعيدا لهم فجاء ضميره حاضرا- متكلما – مفردا.

وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥، ١٤٦].

ففي هاتين الآيتين يجري الأسلوب على ضمير الجلالة- الجمع المتكلم- وذلك في صدر الآية الأولى (وكتبنا) وآخر الآية الثانية وذلك للحكاية عن كذبهم، وللبيان عن علة جزائهم (كذبوا آياتنا)، وحين يقتضي السياق التهديد المباشر يتحول الأسلوب داخل الآيتين وفيما بين ذينك الأسلوبين إلى ضمير الجلالة- المفرد المتكلم - (سأريكم) (سأصرف عن آياتي).

وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥]، فالأسلوب جاء على ضمير الجمع المتكلم له- عز وجل – (آتيناهم)، حتى إذا جاء سياق الوعيد تحول إلى ضمير المفرد المتكلم (رسلي- نكير).

وهكذا يجري هذا اللون البلاغي مقترنا مع ضمير المتكلم المفرد أينما ورد في القرآن الكريم مما يجعله سمة أسلوبية خاصة بسياقاته.

السمة الأسلوبية الثانية هي استخدام أسلوب القصر :

وأكثر تلك المقامات استخداما لأسلوب القصر مقام الوحدانية والعبودية لأنهما يقتضيان أن تقصر الألوهية والعبودية عليه وحده. والقصر يكون بأحد هذه الأساليب:

- النفي والإثبات، كقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

وكقوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤].

وكقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]

- تقديم المفعول، كقوله تعالى: ﴿... فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]. وكقوله: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦]. وقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠]

- تقديم الجار والمجرور، كقوله: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٨].

فهذه الأساليب جميعا تفيد القصر وتؤكد إفراده سبحانه بالألوهية والعبادة أو الخوف أو الخشية وهي معان داخلة في مقام الوحدانية بلا ريب، وقد جاءت في خطابات موجهة - في الأصل - إلى كفار قريش أو إلى بني إسرائيل. وعناد هؤلاء

وهؤلاء متنوع مراوغ فاستدعى ذلك تنوع الأسلوب وتغيير الخطابات، وتفاوت الضمائر، لعلهم أن يثوبوا إلى الرشد ويرجعوا إلى الله.

السمة الأسلوبية الثالثة التوكيد :

ومن أساليب التوكيد : القسم، والتكرار، واسمية الجملة، وأَنّ وإِنّ.

تأتي هذه التأكيدات وغيرها في سائر المقامات، ولكن أكثرالمقامات استخداما لها مقام التعهد، وطبيعي أن يمتاز هذا المقام بهذه السمة الأسلوبية التي تدعم المعنى الذي يحمله من إعطاء الضمان والتعهد، ويناسب دلالة التوثيق في إنجاز الوعد. هذه السمة - وهي التأكيدات القوية والمتعددة - توشك ألا تغادر السياق الذي يرد فيه هذا المقام وما يحمله من ضمانات ومبشرات للمبشرين.

من ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٥]. ففي هذه الآية تعددت التأكيدات وتنوعت :

أن المؤكدة، واسمية الجملة : (أني لا أضيع) والقسم في (لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم).

وفي هذه الآية: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٠]، جاء بفعل التوبة المضارع الدال على الاستمرار ليؤكد قبولها المستمر، ثم لهذا السبب نفسه كرر فكرة التوبة، ونوع الجملة من فعلية إلى اسمية، وجاء - في صفته تعالى - بصيغة المبالغة (التواب). هذا كله مع سياق ضمير المتكلم (أتوب - أنا). فهذه السمة الأسلوبية "التأكيد" يقتضيها معنى الضمان والتوثيق، فإنه

حين يتكفل المولى سبحانه لمن يعده بشيء يسوق التأكيدات والضمانات مستخدما ضمير الفردية المتكلم كما نرى.

وتأمل معي هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، هنا يمتاز سياق التعهد بجملة من التأكيدات :

١) إن ٢) اسمية الجملة ٣) اللام (لغفار) ٤) صيغة المبالغة (غفار).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل:١١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٢، ١٣].

فهنا لما أراد أن يعطي العهد بالجزاء الحسن، وأن يوثق هذا العهد توثيقا خاصا جاء بأسلوب الضمير المفرد تحيط به المؤكدات. ثم لما انتقلت الآية إلى معنى آخر وهو بقية الإخبار عن بنى إسرائيل بعدم الالتزام والطاعة رجع الأسلوب إلى ضمير الجمع الخالي من تلك المؤكدات.

وقد اجتمع في هذه الآية ثلاثة أنواع متجاورة من السياق للضمير، كل سياق مع ما يناسبه، فأخذ الميثاق - لا عطاؤه - جاء مع لفظ الجلالة، وفيه من الهيبة وإبراز

القوة ما فيه لأنه هو الآخذ. وبعث النقباء جاء مع ضمير الجمع، وذلك لجلالة الموقف والتدليل على الحكمة والتدبير فيه. وأخيرا- مع عطاء الميثاق لا أخذه- يأتي ضمير المفرد المتكلم للإشعار بالضمان والطمأنة بالمعية الإلهية (إني معكم). ثم يرجع الضمير إلى الجمع (لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيه) مما يناسب معنى الجزاء والانتقام الشديد.

ومثل هذا التخصيص- أي تخصيص الموضوع بما يناسبه من الضمائر – مع استخدام أساليب الضمان مما يناسب مقام التعهد نجده في الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٥٩، ١٦٠، ١٦١].

- ومن أساليب التوكيد تكرار ضمائر المتكلم نفسها في مواضع يمكن الاكتفاء بأحدها، فمن الملحوظ تكرار ضمائر المتكلم في سياق هذه المقامات جميعا وبخاصة مقام الوحدانية، وهذه الضمائر قد تكون من ضمائر الرفع مثل: أنا، أو من ضمائر النصب إياي، وياء المتكلم. أو من ضمائر الجر مثل ياء المتكلم أيضا.

ومن البين في ذلك قوله تعالى: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩].

وقوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤].

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ [طه:١٢]، قال الزمخشري: (وتكرير الضمير في إني أنا ربك، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة

وإماطة الشبهة)(١٨). يريد الزمخشري توكيد دلالة الوحدانية وتحقيق المعرفة بها وإماطة الشبهة عن الاعتقاد بها.

وكان يكفي الأسلوب أن يجئ دون تكرار الضمائر كنحو : إني ربك أو أنا ربك. ولكن قارن بين الأسلوبين القرآني والافتراضي تجد بونا شاسعا وفرقا واسعا في الإقناع وإبلاغ المعنى وتحقيقه في نفس السامع.

خاتمة:

بينت من خلال هذا البحث أن المولى- عز وجل- يتحدث عن نفسه في كتابه العزيز بالاسم الظاهر كلفظ الجلاله- الله –(١٩)، وكلمة- رب- .(٢٠)

كما يتحدث عن نفسه بالصفات الخاصة به سبحانه كالقدير والغفور وغيرها.

وبالضمائر إلا ضمير المخاطب، أي بالغائب والمتكلم فحسب، أما ضمير الغائب فبالمفرد دون الجمع والمثنى.

وأما ضمير المتكلم فبالجمع، وهو معظم ما جاء في القرآن الكريم، وبالمفرد وهو ما يختص بسياقات معينة، عرَّفت بها وشرحتُها ومثلت لها ودللت على دقتها وأشرت إلى روعتها البلاغية، وعللت لم اختص ضمير المتكلم المفرد بتلك المقامات، وذلك أنها تقتضي معانيه ودلالاته التي هي أقوى حضورا وأتم معاينة وقربا من معاني الضمائر الأخرى، فهو يشعر بقوة حضور صاحبه في مباشرة الفعل الذي يقوم به. وورود‌ه - وبخاصة في الأسلوب الحواري - يفيد انعدام الحواجز بين المخاطِب والمخاطَب، ويُفني المسافة بينهما.

وقد بينت من واقع الآيات أن ضمير الجلالة المتكلم قد حمل من معاني الوحدانية، ومن دلالات القرب والصلة والمحبة والشفافية والحضور والتآلف والتودد

والخصوصية والتخويل والاصطفاء والتكريم والطمأنة والقبول والرضا والصون والتشريف ما لم تحمله ـ بالمقدار نفسه ـ الضمائر الأخرى.

والناظر المتدبر في سياقات هذا الضمير في القرآن الكريم يعلم علم اليقين أن لمجيئها على هذا النحو دلالة واضحة على أن الأسلوب القرآني يراعي تلك المقامات الخمسة المذكورة مراعاة دقيقة مرهفة.

وفيما عدا هذه المقامات الخمسة يندر أن يجئ ضمير الجلالة المتكلم المفرد له عز وجل، وحتى ما ورد من ذلك يمكن رده بيسر ودون تكلف إلى أحد هذه المقامات.

وإذا كان الضمير المفرد المتكلم يأتي للدلالة على الاهتمام بالذات أو التوحد معها أو التركيز حولها كما هو شأنه في القصص والروايات والأشعار فإن أبعد ما يكون ذلك عن ضمير الجلالة المفرد المتكلم.

ويبقى في نهاية هذه الدراسة الموجزة المتواضعة أن أوصي بالنظر المتأمل والمتأني في مسائل أسلوبية تتصل بهذا الموضوع أو تشبهه مثل :

خيارات استخدام الضمائر على مختلف أنواعها : لم استخدم هذا الضمير دون ذاك(٢١)؟ وما خيارات استخدام الضمائر مكان الأسماء الظاهرة أو العكس(٢٢) ؟، وما خيارات استخدام أسماء الله الظاهرة مكان بعضها - أي غير الضمائر- ؟(٢٣) وما خيارات استخدام الفعل المبني للمجهول مكان المعلوم أو العكس(٢٤) ؟

هذه المسائل ومسائل أخر(٢٥) في حاجة من الدارسين إلى نظر وتدبر ودراسة جادة.

نسأل الله أن يعيننا على خدمة كتابه، وتلاوته حق التلاوة، وهو المعين والهادي إلى سواء السبيل.

المراجع:

١. للاطلاع على أحوال الضمائر وتفصيلاتها في كتب النحو انظر مثلا :
ضياء السالك، إلى أوضح المسالك ٩٧/١ ، – محمد عبد العزيز النجار- مطبعة السعادة – القاهرة .ط ٢ ١٣٩٣ - ١٩٧٣ م ، النحو الوافي ١ / ٢١٨– عباس حسن – دار المعارف - القاهرة ط ٧ ١٩٨١م .

٢. ديوان الخوارج ص ٢٢٢ د. محمود نايف . دار المسيرة . بيروت . ط ١، ١٤٠٣هـ .

٣. الأمالي لأبي علي القالي ١/ ٢٥٨ . تحقيق محمد بن عبد الجواد الأصمعي . دار الكتاب العربية . بيروت .

٤. ديوان جرير ص ٩٦ . شرح محمد إسماعيل الصاوي . دار الأندلس . بيروت

٥. الكشاف ٣/ ٣ . تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي . شركة مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٩٢ هـ

٦. الكشاف ٣/ ٤٣ .

٧. المراد بالمقامات هنا : المعاني والدلالات التي تريدها الآيات الكريمة من سياقها . وإنما آثرت كلمة المقامات لأن المواضع التي ترد فيها لاتقتصر على كونها معنى لمفردة أو لجملة واحدة وإنما لدلالة أوسع من ذلك ..

٨. قال العلامة ملا علي القاري : في كتابه شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان ص ٩ : (ابتداء كلام سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقدير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضى من الخلق تحقيق العبودية وهو ما يجب على العبد أولا من معرفة الله سبحانه وتعالى . والحاصل أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس في القضية)

٩. انظر من هذا البحث ص ١١

١٠. انظر مثلا : تفسير أبي السعود ١ / ٣١٦

١١. وردت كلمة (عباد) في القرآن الكريم في ٩٥ موضعا ، يراد بها في مواضع المؤمنون – وهو الغالب – وفي مواضع أخرى المؤمنون وغيرهم ، ووردت كلمة (عبيد) في خمسة مواضع ، كلها لعامة الناس أي المؤمنين وغيرهم ، وكل هذه المواضع الخمسة في نفي الظلم عن الله مثل قوله{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} (١٨٢) سورة آل عمران. و لم يجئ ضمير المتكلم له - عز وجل - مفردا أو جمعا مع الثانية (عبيد) وإنما جاء مع الأولى (عباد).

١٢. رواه البخاري في صحيحه - باب الرقاق - برقم ٦٥٠٢ ، انظر : الأحاديث القدسية – أ / يوسف علي بديوي . دار ابن كثير – دمشق ط ٢، ١٤١٩هـ

١٣. ورد- فعل النداء- في هذا الموقف " حوار الله لموسى " في القرآن الكريم بصيغ ثلاث

الأولى بالبناء للمجهول (نودي) ، وذلك في قوله {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى} (١١) سورة طه ، وقوله {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٨) سورة النمل ، وقوله {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (٣٠) سورة القصص.

والثانية بضمير الجمع المتكلم {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} (٥٢) سورة مريم

والثالثة بضمير الغائب {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} (١٦) سورة النازعات.

ولكل سياق نظمه وجماله وعلته، فالسياق في الصيغة الأولى (نودي) أراد أن ينص على الحدث وهو النداء دون إرادة الفاعل - المنادي - خاصة أنه قد صرح به في مواقف أخرى فهو معلوم بالجملة . أما في هذا الموقف – أي في الآيات الثلاث المذكورة أولا - فحذف الفاعل لأن المقصود هو تصوير قوة الحدث - النداء نفسه - ، وذلك لشدة المفاجأة من هذا النداء على موسى وقوة الدهشة فيه .

وليلحظ القارئ الكريم أيضا ما قررناه في مراعاة ضمير المتكلم في مقام الحوار ، وذلك باختلاف سياق أول هذه الآية عن السياق في آخرها ، إذ بنى الفعل في أولها للمجهول- غير المباشر - (نودي) ثم لما حان تكليم الله لموسى ومباشرته بخطاب محوره الوحدانية والعبودية تحول إلى ضمير المتكلم المفرد مع النداء المباشر لموسى : {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (٣٠) سورة القصص .

و في الصيغة الثانية (ناديناه) لعله أراد هيبة المنادى وجلالته وعظمته فناسبه الجمع.

أما في الصيغة الثالثة (ناداه) فلعله أراد أن ينص على أن المنادي هو الله وليس الملائكة ، لأنه ربما يتوهم أن المنادي في أول الأمر هم الملائكة لكي تهيئ موسى لخطاب الله ، وهذا غير صحيح ، فتأتي هذه الآية لتنفي هذا التوهم ولتصرح بنداء الله نفسه لموسى .

١٤. خصائص التركيب ١١٧ . د . محمد محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة ـ مصر ١٩٨٠ م

١٥. الكشاف ٣/ ٥٣٦ ، ٥٣٧

١٦. انظر في ذلك مثلا : تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ١ ص ٢٥١ – دار الشعب – القاهرة - ط ٢ . و تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ج ١ ص ٢١ - شركة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة - ط ٢ - ١٣٧٥ هـ .

١٧. الكشاف ١ / ١٢

١٨. الكشاف ٢/ ٥٣١

١٩. كقوله {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ } (١١) سورة النساء

٢٠. كقوله {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } (٦٨) سورة النحل

٢١. مثل {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} (٦١) سورة الأنعام . فلم لم يقل رسله جريا على ضمير الغائب (ويرسل)؟

٢٢. مثل { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } (٣١) سورة المدثر فلم لم يقل – مثلا - وما يعلم جنودي ؟ .

٢٣. مثل- رب - ،و- الله - {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٢) سورة الفاتحة فلم لم يقل الحمد لرب العالمين مثلا ؟

٢٤. مثل {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} (٧) سورة الفاتحة فلم لم يقل (غير الذين غضبت عليهم) عطفا على مثيلتها (أنعمت) . وكقوله {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٤٤ ، ٤٥) سورة الأنعام . فلم لم يقل:آتيناهم ، و فقطعنا جريا على (فتحنا) و (أخذناهم) ؟ .

٢٥. من هذه المسائل مثلا اختصاص معظم الأحاديث القدسية بسياق ضمير المتكلم المفرد لله- عز وجل- .

First Person Singular Pronoun in Reference to Allah in the Holy Quran

Mohamed Al-Doghan

Department of Arabic, College of Education, King Faisal University
Al-Hassa, Saudi Arabia

Abstract:

The preset investigates the stylistic feature of using the first person singular pronoun in reference to Allah in some cases in the Holy Quran, the Muslim Holy Book. It undertakes a qualitative analysis of the occurrence of the first person pronoun in singular and plural forms, comparing these two types of reference. It then studies the functional aspects of this phenomenon in the other parts of the Quran. The result of this comparison shows high level of agreement between the random sample and the rest of the Quranic text.

The results obtained can be summarized in the following points:

- Most of the first person pronouns in reference to Allah in the Quran are in the plural.
- The cases in which the first person pronoun refers to Allah in the singular, are limited in number and specific to certain semantic features most important of which are the following attributes: monotheism, worship, address of the favored, promises to the faithful and obedient, threats to the unbelievers and disobedient,
- The singular form of the first person pronoun is typically used in the above contexts because it is found to signify proximity and uniqueness more than other pronouns.

Finally, the study recommends further investigations of other stylistic features in the Quran to discover the rhetorical and/or functional function of a particular formulation rather than others.